موقف المعتزلة من تفسير القرآن

الدكتور مصطفى الصاوي الجويني
الخرطوم

لقد وقف المعتزلة منذ البدء في تفسير القرآن والحديث المروي موقفاً عقلياً واضحاً؛ ذلك أنهم اعتبروا العقل قبل الشرع؛ وعلى هذا ارتضوا خمسة أصول فكرية لم يخالفوا فيها، وإن خالفوا في مسائل فرعية عنها، وهي: التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1]. يضيء موقفهم هذا ما يحكيه الخياط المعتزلي، من أنه سأل جعفر بن بشر عن قوله تعالى: ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾[2]، وعن «الختم والطبع»، فقال: أنا مبادر إلى حاجة، ولكني ألقي عليك جملة تعمل عليها: اعلم أنه لا يجوز على أحكم الحاكمين أن يأمر بمكرمة ثم يحول دونها، ولا أن ينهى عن قاذورة ثم يدخل فيها، وتأوّلِ الآيات بعد هذا كيف شئت[3].

دلالة هذا الخبر ذات أهمية واضحة، فالمعتزلة ملتزمون بالمبدأ العقلي أولاً وهو هنا مبدأ العدل، وتتفرع عنه مسائل، منها: المسألة الواردة في الخبر المسوق، وهي: هل الإرادة الإنسانية حرة مختارة أو مجبرة مسيّرة؟ أما العقل فيشير إلى استحالة أن يجبر الله امرأً على فعل ثم يحاكمه عليه؛ وإذن فلتُأوَّلِ الآيات في هذا المجال الفكري بعدئذ بفنون وحيل.

أما وقد أصبح للمعتزلة أسسهم العقلية، فهم بعد يجولون بنظرة عقلية كاشفة جامعة في خلال القرآن كله، وينتهون إلى أن ما وافق ظاهر معناه مبادئهم فهو محكم، وما لم يوافق ظاهره أصولهم الفكرية فهو متشابه.

---

(١) الانتصار للخياط ـ ص ٤٩ ـ ٦٠.
(٢) سورة النحل، آية: ٩٣.
(٣) المنية والأمل للمرتضى، ص ٤٣.

ولعل أول إشارة صريحة إلى هذا نراها في مسألة انبنى عليها تأسيس فرقة المعتزلة، وهي مسألة مرتكب الكبيرة ومدى عقوبته؛ فارتأى مؤسسا مدرسة الاعتزال، واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، أن المحكمات ما أعلم الله سبحانه من عقابه للفساق، كقوله ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾؛ وما أشبه ذلك من آي الوعيد والمتشابه هو ما أخفى الله عن العباد عقابه عليه، ولم يبين أنه يعذب عليه كما بيّن في المحكم منه(٤). وإذن تصبح رسالة التفسير عند المعتزلة هي تأويل ما لا يتفق مع مبادئهم العقلية أي نظم معنى ما هو متشابه في سلك ما هو محكم.

وحكموا بأن مَنْ في قلبه زيغ يتبع المتشابه، كاتباع المشبهة والمجبّرة ظاهر ما في القرآن، فذمهم الله تعالى بذلك، والواجب اتباع الدليل. وليس في المتشابه آية إلّا ويقترن بها ما يدل على المراد، والعقل يدل على ذلك(٥).

مفهوم التأويل عند المعتزلة:

على أنه قبل التعرض لبعض أساليب المعتزلة في التأويل يحسن بنا أن نتبين مفهوم المصطلح «تأويل» لديهم، ونتبينه عند إمام من أئمتهم وهو الجاحظ(٦). يورد الجاحظ خبراً يحدّث فيه عن العرب أنه كان يقول أحدهم في موضع الكفارة والأمنية: إذا بلغت إبلي كذا وكذا وكذلك غنمي ذبحت عند الأوثان كذا عتيرة، والعتيرة من نسك ـ الرجبية ـ والجمع عتائر، والعتائر من الظباء. فإذا بلغت إبل أحدهم وغنمه ذلك العدد استعمل التأويل. وقال: إنما قلت إني أذبح كذا وكذا شاة والظباء شاء كما أن الغنم شاء، فيجعل ذلك القربان شاء كله مما يصيد من الظباء(٧)؛ فالتأويل هنا إنما هو توجيه اللفظ عن الوجهة المعنوية الأولى المرادة، إلى وجهة ثانية، وفق الهوى؛ مع استغلال مرونة اللغة في ذلك. فالظباء شاء والغنم شاء، والعربي كان قصد بقربانه إلى الغنم أولاً، لكنه ضن بغنمه لما تكامل عددها، وجعل قربانه مما صاده من الظباء.

أدوات التأويل أجملها الشريف الرضي:

هذا المعنى بعينه للتأويل يترسمه المعتزلة في منهجهم في تفسير القرآن وتفهم الحديث جميعاً، ثم هذا التأويل كان لا بد له من أدوات أجملها الشريف الرضي في وقفته عند آية من سورة يوسف نصها:

---

(٤) مقالات الإسلاميين للأشعري، جـ ١، ص ٢٢٢.

(٥) تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار، ص ٥٢.

(٦) للقوم نقاش في هذا المجال أورده السيوطي في إتقانه؛ ولعل أوضحهم تمييزاً لفرق ما بين التفسير والتأويل هو الراغب الأصفهاني. ولبّ فكرة الراغب تدور حولها رسالة ابن تيمية «الإكليل في المتشابه والتأويل».

(٧) الحيوان للجاحظ: جـ ١، ص ١٨.

﴿ولقد همت به وهم بها لولا ان راى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾[٨] قال: «إنه إذا ثبت بأدلة العقول التي لا يدخلها الاحتمال والمجاز ووجوه التأويلات، إن المعاصي لا تجوز على الأنبياء عليهم السلام، صرفنا كل ما ورد ظاهره بخلاف ذلك من كتاب أو سنة، إلى ما يطابق الأدلة ويوافقها، كما يفعل مثل ذلك فيما يرد بظاهره مخالفاً لما تدل عليه العقول من صفاته تعالى وما يجوز عليه أو لا يجوز»[٩].

فالأدوات هي: العقل يساند أصول الاعتزال، واللغة والخبرة الممارسة للتأويل.

اللغة أداة للتأويل حظيت باهتمام المعتزلة:

أمّا أولى الأدوات فلن نقف أمامها، لأن مجالها كتب الكلام. وأشار صدر البحث إلى أمهات مسائلهم فيها. لكن ما يوقفنا قليلاً هنا، إنما هو اللغة التي حظيت بجانب عظيم من اهتمام المعتزلة، وأخضعوها إلى حد كبير لمنهجهم العقلي. فبادىء ذي بدء حين رأوا أن أهل السنة، ويمثّل رأيهم ابن فارس، يقولون بأن للغة توقيفاً[١٠] وأن في قولهم هذا يكمن الرأي بخلق الله لأفعال العباد، وهو معتقد أهل السنة، قال المعتزلة من جانبهم، ومثّل رأيهم ابن جني وأبو علي الفارسي، إن اللغة اصطلاح؛ ورفضوا المواصفة لأن القديم سبحانه لا يجوز أن يوصف بأنه يواضع أحداً على شيء، إذ إنّ المواصفة لا بد معها من إيماء وإشارة بالجارحة، والقديم لا جارحة له؛ فيصح الإيماء والإشارة[١١]. وإذا كانت فعالية اللغة تخضع لإرادة إنسانية حرة، فيصبح من ثم للفظ معان قد تتخالف إذ تستخدم في مواطن تعبير مختلفة وتحوطها ظروف متغايرة، وعلى حد قول الجاحظ: «قد يشبه الاسم الاسم في صورة تقطيع الصوت، وفي الخط، وفي القرطاس وإن اختلفت أماكنه ودلائله؛ فإذا كان ذلك فإنما يعرف فضله بالمتكلمين به، وبالحالات والمقالات، وبالذين عنوا بالكلام»[١٢].

ويبقى ثمة مجال بعد لتمرن اللغة في أيدي المعتزلة، وتطوّع أكثر، فذهبوا إلى أنه لا يجب أن تؤخذ العرب بالتحقيق في كلامها فإن تجوزها واستعاراتها أكثر[١٣].

والمجاز كما نعلم صورة من صور التعبير الأدبي، فيه من المنافذ إلى التأويل ما لا نجده في الأسلوب الحقيقي، الذي لا يبيح للفظ أن يحتمل أكثر من معنى أو معان محددة الاستعمال. ومن هنا تنشأ عند المعتزلة ـ مسألة وجوه المعاني؛ وهذا أمر طبيعي حدوثه، فهم أولاً مدرسة عقلية لها مبادئها،

---

(٨) سورة يوسف، آية: ٢٤.
(٩) آمالي المرتضى: جـ٢، ص ١٢٥ ـ ١٢٩.
(١٠) المزهر للسيوطي: جـ١، ص ٥.
(١١) المصدر نفسه: جـ١، ص ٩
(١٢) الحيوان للجاحظ: جـ١، ص ٣٠٥/٣٠٦.
(١٣) آمالي المرتضى: جـ٢، ص ٣٦.

وهم ثانياً كانوا في موقف المدافع عن الإسلام ضد هجوم الديانات الأخرى، واقتضاهم التأمل العقلي للآي القرآني تلمس الوجوه المناصرة؛ وكلما كثرت أدلتهم وزادت براهين حجاجهم كان هذا مدعاة لإرباك الخصم المناظر أو استسلامه. وأعانهم على مهمتهم مرونتهم العقلية كمتكلمين درسوا الفلسفة والمنطق من ناحية، وكفصحاء ذوي دراية باللغة والأدب من ناحية ثانية؛ وكذلك تضخم ثروة التفسير عندهم من موروث نقلي لا يعارض مبادئهم، واعتزالي تناقلته أجيالهم، ومستحدث يضيفه كل جيل إلى ما لديه.

ومن ثم نجد عند مثل المرتضى مثل هذه العبارة: «ويمكن في الآية وجه ثالث لم نجدهم ذكروه...»[١٤]. بل إنَّ المرتضى نفسه ينبه في صراحة، وإن لم ينص على القرآن، ما يُتبع في تفسير الكلام. يقول: «الواجب على من يتعاطى تفسير غريب الكلام والشعر أن يذكر كل ما يحتمله الكلام من وجوه المعاني»[١٥].

معاناة المعتزلة من منهجهم اللغوي في التأويل:

والآن لنر إلى أي حد عانى المعتزلة من تطبيق هذا المنهج، بتقليب النص على كل الوجوه المعنوية المحتملة في إطار مبادئهم الفكرية. هذه آية ظاهرها يصدم في صراحة رأي المعتزلة في التوحيد، والمسألة فيها هي: هل البصر يستطيع رؤية الله على التحقيق؟ يمهد الشريف المرتضى للتقليب المعنوي للنص بقوله: «اعلم أن أصحابنا قد اعتمدوا في إبطال ما ظنه أصحاب الرؤية في قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾[١٦] على وجوه معروفة؛ لأنهم بيّنوا أن النظر ليس يفيد الرؤية ولا الرؤية من أحد محتملاته» وهكذا في تحديد قاطع يضع المبدأ الاعتزالي واضحاً نصب العين. ثم يتطرق من هذا إلى تأويل مفهوم ـ النظر ـ فهو عنده ينقسم أقساماً كثيرة، «منها: تقليب الحدقة الصحيحة في جهة المرئي طلباً لرؤيته...

ومنها: النظر الذي هو الانتظار.

ومنها: النظر الذي هو التعطف والرحمة.

ومنها: النظر الذي هو الفكر والتأمل...»؛ ويخلص إلى أنه «إذا لم يكن في أقسام النظر الرؤية، لم يكن للقوم بظاهرها تعلق، واحتجنا جميعاً إلى طلب تأويل الآية من غير جهة الرؤية»؛ ثم يذكر أن بعض المفسرين تأول النظر على الانتظار للثواب وإن كان المنتظر في الحقيقة محذوفاً، والمنتظر منه مذكوراً على عادة العرب معروفة.

---

(١٤) مثلاً: أمالي المرتضى: جـ٢ ص٩٧، وجـ٢ ص٥٤؛ ومواضيع عدة أخرى.

(١٥) أمالي المرتضى: جـ١، ص١٤.

(١٦) سورة القيامة، آية: ٢٢.

ثم إذا انتهى المرتضى من تقرير ذلك كله في تأويل النظر على أنه ليس الرؤية، يعود فيسلم بأن النظر قد يكون من أقسامه الرؤية بالبصر، ولكن رؤية ماذا؟ «وسلم بعضهم أن النظر يكون الرؤية بالبصر، وحمل الآية على رؤية أهل الجنة لنعم الله تعالى عليهم على سبيل حذف المرئي في الحقيقة».

ومن بعد ذلك العناء كله، يحاول الشريف المرتضى أن يهدأ بالاً، فينتهي إلى رأي بعض المعتزلة في تأويل الآية: «وها هنا وجه غريب في الآية: حكي عن بعض المتأخرين لا يفتقر معتمده إلى العدول عن الظاهر، أو إلى تقدير محذوف. ولا يحتاج إلى منازعتهم في أن النظر يحتمل الرؤية أو لا يحتملها، بل يصح الاعتماد عليه سواء أكان النظر المذكور في الآية هو الانتظار بالقلب أم الرؤية بالعين، وهو أن يحمل قوله تعالى ﴿إلى ربها﴾ إلا أنه أراد نعمة ربها لأن الآلاء النعم...»[17].

وليس من شك أنه إذا كان المرتضى قد ارتاح إلى هذا التأويل الأخير، فلسنا نرتاح إليه لما يحمل من تعسف وتمحل واضحين؛ إذ «إلى» هنا حرف جر وليست اسماً بمعنى النعمة.

ومع هذا فلمنهج المعتزلة حسنات:

وإذا كان طبيعياً أن مثل هذا المنهج الذي اتبعوه في تفسير القرآن دعاهم إلى التعسف والتكلف فيما ورد من آي قد تعارض مبادئهم من ناحية، إلا أنه كان لهذا المنهج من ناحية أخرى فضل غير منكور. منه هذه الوقفات العقلية من تفسير القصص القرآني وآيه.

المعتزلة والمفسرون:

أوصى النظام المعتزلي بأن لا نسترسل إلى كثير من المفسرين، وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة. فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس؛ وكلّما كان المفسّر أغرب عند العامة كان أحب إليهم. وضرب مثلاً بعكرمة، والكلبي والسدي والضحاك ومقاتل بن سليمان وأبي بكر الأصم، ودعا إلى عدم الوثوق بتفسيراتهم، فقد قالوا في قوله عز وجل: ﴿وإن المساجد لله﴾ أن الله عز وجل لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلي فيها، بل إنما عنى الجباه وكل ما سجد الناس عليه من يد ورجل وجبهة وأنف وثفنة.... وقالوا في قوله تعالى: ﴿ويل للمطففين﴾ الويل: واد في جهنم. ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي. ومعنى الويل في كلام العرب معروف وكيف كان في الجاهلية قبل الإسلام وهو من أشهر كلامهم...

وقال آخرون في قوله تعالى: ﴿عيناً تسمى سلسبيلاً﴾ قالوا: أخطأ من واصل بعض هذه الكلمة ببعض. قالوا: إنما هي ﴿سل سبيلاً إليها يا محمد﴾؛ فإن كان كما قالوا، فأي معنى تسمى؟، وعلى أي

(١٧) أمالي المرتضى: جـ ١، ص ٢٨.

شيء وقع قوله تُسمّى فتسمى ماذا؟ وما ذلك الشيء... الخ[١٨].

وللمعتزلة ملاحظ أدبية رائعة:

ومن حسنات ذلك المنهج أيضاً فطنتهم إلى ملاحظ أدبية، ذات قيمة تبلغ أوجها في تفسير واحد منهم هو الزمخشري.

ولكن ليكفنا هنا ما نجدهم وفقوا إليه من استشفاف ما في النص من معان نفيسة، من مثل ما نجد من صنيع الجاحظ حين يفسّر قوله عز وجل لنبيه (ص): ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾[١٩] فيقول: «لأن الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعه بطباعه آنس، وعلى قدر ذلك يكون موقع ما يسمع منه»[٢٠].

وينظم الآي:

(أ) ﴿كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾[٢١].

(ب) ﴿في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة﴾[٢٢].

(جـ) ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾[٢٣].

(د) ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾[٢٤].

(هـ) ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾[٢٥].

ينظمها في تفسير نفسي واحد فيقول: «ولو لم تكتب أعمالهم لكانت محفوظة. لا يدخل ذلك الحفظ نسيان، ولكنه تعالى وعز علم أن كتابة المحفوظ ونسخه، أوكد وأبلغ في الإنذار والتحذير وأهيب في الصدور»[٢٦].

ما يؤخذ على المعتزلة:

ثم... هل من مأخذ على منهج المعتزلة؟

إنهم أخطأوا حين وقفوا من ظاهر النص القرآني موقفين متعارضين: الظاهر ما ساند مذهبهم،

---

(١٨) الحيوان للجاحظ: جـ١، ص٣٤٣ - ٣٤٦.

(١٩) سورة الأنعام، آية: ٩.

(٢٠) الحيوان للجاحظ: جـ١، ص ٤٥.

(٢١) سورة الانفطار، آية: ١١ و١٢.

(٢٢) سورة عبس، آية: ١٣.

(٢٣) سورة الحاقة، آية: ١٩.

(٢٤) سورة الانشقاق، آية: ١٠.

(٢٥) سورة الإسراء، آية: ١٤.

(٢٦) الحيوان للجاحظ: جـ١، ص٦٢.

وإلا رفضوه ونادوا بالتأويل وإعمال العقل التماساً لما في رؤوسهم من أفكار. والحق أن خطأهم الأكبر إنما يكمن في اعتمادهم لمبادئهم الفكرية اعتماداً قاطعاً باتاً، حاولوا به أن يخضعوا الدين وفيه من الغيبيات ما فيه، لتلك المبادىء؛ وكانت آلتهم الأولى في ذلك، العقل الذي جمحوا به جموحاً أوردهم موارد الشطط والتعسف، مسخرين في سبيل تلك الغاية ما وعوا من معارف.

«ولئن كانت بدايتهم دفاعاً عن الإسلام من طعنات أعدائه، فلقد كانت نهايتهم تعصباً مذهبياً لغاية التعصب، وردد صدى ذلك كله تأويلهم النص القرآني»[٢٧].

(٢٧) العربي ١٢٢/١٩٦٩.